

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

مدنية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ النفل: الغنيمة، سُمِّيَتْ به لأنها عطية من الله تعالى، زائدة على الأجر في الجهاد من الثواب الأخروي، والمراد هنا الغنائم، عن سعيد بن جبير قال: سألتُ ابن عباس عن سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر، ^(١) وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود، والنسائي، والبيهقي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: من قتل قتيلاً فله كذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الراية، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، وقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداءً، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية فقسم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية ^(٢)، أي يسألونك يا رسول

(١) أخرجه البخاري ٢٣٠ / ٨ ومسلم رقم ٣٠٣١ في تفسير سورة الأنفال.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٢٧٣٧ والبيهقي ٢٩١ / ٦ والحاكم ١٣١ / ٢ وصحَّحه.

الله عن حكم الأنفال ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي حكمها مختص به تعالى، يقسمها الرسول ﷺ كيفما أمر به ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف في أمر الغنائم، وحاصل الجواب يا أيها المؤمنون إن ما وعدتكم به بإذن الله تعالى، وقد ملكني الله سبحانه هذه الغنائم، وهو أعلم بالحكمة، فاتقوا الله من عدم الرضا بذلك، ومن هنا يعلم حسن الأمر بالتقوى ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله ورسوله ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما يأمر وينهى عنه، فإن في ذلك مصالح لا تعلمونها، وإنما يعلمها الله ورسوله، وذكر الاسم الجليل في الأمرين، لتربية المهابة، وتعليل الحكم، وذكر الرسول ﷺ مع الله تعالى لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه والإيدان بأن طاعته طاعة لله عز وجل ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين، بالعدل والإحسان، ويؤيد إرادة الكمال قوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ المراد به الكاملون في الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظاماً له، وتهيباً من جلاله، وقيل: هو الرجل يهجم بالمعصية، فيقال له: اتق الله، فينزع عنها خوفاً من عقابه، والاطمئنان المذكور في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ لا ينافي الوجع والخوف، لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد بنور المعرفة، وهو يجامع الخوف ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ أي آيات القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لاطمئنان النفس، ورسوخ اليقين، بتظاهر الأدلة والعمل بموجبها،

والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة، وهي التي عبّر عنها بالزيادة، للفرق الثّير بين يقين الأنبياء، وبين يقين آحاد الأمة، وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدثين، لكثرة الظواهر الدالة على ذلك،^(١) وذهب كثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه اسم للتصديق والإذعان، ولا يتصور فيه الزيادة والنقصان!! ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يفوضون إليه أمورهم، ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه، وهذه المراتب الثلاثة من أعمال القلوب، وقد أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح، فقال جلّ وعلا.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة بحدودها، وأركانها، وشرائطها، في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي أعطيناهم من الأموال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ أي يتصدقون فيما أمر الله تعالى به، وتدخل فيه الزكاة، والنفقة، وسائر الخيرات.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المتصفون بالصفات الحميدة المذكورة ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صدقاً بلا شك، لأنهم حققوا إيمانهم، بأن ضمّوا إليه أفضل الأعمال القلبية. روي عن الحسن رحمه الله أن رجلاً سأله أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت سألتني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ونحو ذلك فأنا مؤمن، وإن كنت سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ الآية فلا أدري أنا منهم، أو لا؟ ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ كرامة، وعلو منزلة رفيعة، درجات كثيرة ومختلفة، فإن قيل: ليس أن المفضل إذا علم حصول درجة عالية للفاضل، فإنه يتألم قلبه؟ قلنا: إن استغرق كل واحد في سعادته الخاصة به، تمنعه من حصول

(١) الشواهد كثيرة على زيادة الإيمان أو نقصه، منها قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقوله جلّ ثناؤه: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا فَوْقَ إِيمَانِهِمْ﴾.

الحقد والحسد ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صاف عن كد الاكتساب، وخوف الحساب، لا ينقضي أمده ولا ينتهي عدده.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ٥ يُجَدِّلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ٧ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ٨ .

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بسبب الحق الذي وجب عليك، وهو الجهاد، والمراد من البيت مسكنه ﷺ أو المدينة نفسها لأنها مثواه، وإضافة الإخراج إلى الرب إشارة إلى أنه كان بالوحي، ومعنى الآية حالهم هذه في كراهة ما وقع في أمر الأنفال، كحال إخراجك من بيتك في كراحتهم له وهو حق ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ الخروج إما لعدم الاستعداد للقتال، أو للنفرة الطبيعية عنه، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة. وقصة بدر على ما روى جماعة أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيها تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقاها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر بمكة، فنادى أبو جهل: النَّجَاءُ النَّجَاءُ فخرج أبو جهل بجمع من أهل مكة، فقليل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد بدرًا، فنحز الجزور، ونشرب الخمر، وتضرب على رؤوسنا القينات، أي المغنيات، وتهابنا العرب، فمضى بهم إلى بدر، فنزل جبريل فقال: يا رسول الله: إن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقال بعضهم: إنا خرجنا

للغير، فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: لم نخبرنا عن القتال، وإنما أخبرتنا عن العير فدفع العدو، فتغير وجهه ﷺ فقام عند ذلك أبو بكر وعمر فأحسنا الكلام، ثم قام سعد ابن عباد فقال: يا رسول الله انظر أمر ربك فامض بنا إلى ما تريد، لا يتخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قام المقداد فقال: «يا رسول الله امض لما أمرك الله فإننا معك، لا نقول لك، كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، فتبسم ﷺ وقال: سيروا على بركة الله»^(١) وبهذا تبين أن بعض المؤمنين كانوا كارهين، وبعضهم لم يكن كذلك وهم الأكثر كما تشير إليه الآية الكريمة.

﴿يُجِدُّوْنَكَ فِي الْحَقِّ﴾ في إثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقى العير عليه ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا إلا للغير، وهلاً قلت لنا القتال لنستعد له ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلّة عددهم، وعدم تأهبهم، فقد روي أنهم كانوا ثلثمائة وخمسة عشر رجلاً فيهم فارسان، وكان المشركون ألفاً، قد استعدّوا للقتال.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ بيان لجميل صنع الله عز وجلّ بالمؤمنين، مع ما بهم من قلة الحزم، وكثرة الخوف، أي اذكروا يا معشر المؤمنين وقت وعد الله تعالى إياكم، إحدى الطائفتين، وهما: العير أو النفير ﴿أَنَّهُا لَكُمْ﴾ أي كائنة لكم تتصرفون كيف شئتم ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أي

(١) مقالة المقداد للنبي ﷺ أخرجها البخاري ٢٨٧/٧ في المغازي، وفيها قوله: لا نقول لك كما قال قوم موسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فأشرق وجه النبي ﷺ وسره قوله.

تريدون وتحبون ﴿أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمُ﴾ لقلة عددها، وكثرة مالها، والشوكة مستعار من واحدة الشوك، والشوكة شدة البأس وتطلق على السلاح ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يثبتته ويُعليه ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ بآياته المنزلة ﴿وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ آخرهم ويستأصلهم، والمعنى: أنتم تريدون الغنيمة، والله عز وجل يريد العزة لكم والنصر، وشئان بين المرادين.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي لهذه الغاية فعل ما فعل، ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيقته، وكذا إبطال الباطل ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك أعني إحقاق الحق وإبطال الباطل، والمراد بهم المشركون لا من كره الذهاب إلى النفي لأنه لا جرم منهم.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ أَلْمَلِكَةِ مُرْدِفٍ﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الاستغاثة: طلب الغوث، وهو التخليص من المكروه، ومن الشدة، وصيغة المضارع لاستحضار صورتها العجيبة، والظاهر أن المستغيثين هم المؤمنون، وقال الزهري إنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فقد قال ﷺ: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»^(١) كما دعا على

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٢٥١/٥ وتتمته: يهتف بربه ماداً يديه، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأناه أبو بكر فآلقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، إنه سينجز لك ما وعدك، فنزلت: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾ الآية.

أناس معينين من صناديد الكفر، الذين آذوه وهو بمكة كما ورد من رواية ابن مسعود: «اللهم عليك بقريش - أي بهلاكهم - اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعُتْبَةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمّية بن خلف، وعُقبَةُ بن أبي مُعَيْط، قال ابن مسعود: فوالذي بعث محمداً بالحق، لقد رأيتُ الذين سَمَى الرسولُ ﷺ صرعى ثم سَحَبُوا إلى قلب بدر...»^(١) الحديث، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي فأجاب دعاءكم، عقب استغاثتكم إياه على أتم وجه ﴿أَنِّي مُبَدِّدُكُمْ﴾ أي بأني مدمدم أي مرسل إليكم مدمداً ﴿يَأْتِيَنَّ مِنَ الْمَلَايِكَةِ مُرَدِّفَاتٌ﴾ أي متتابعين يردف بعضهم بعضاً وراء كل مَلَكٍ مَلَكٌ آخر، والأكثرُونَ على أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وفي الأخبار ما يدل عليه، وقيل: إنهم لم يقاتلوا، وإنما نزلوا ليكثرُوا سواد المسلمين ويشبّوهم، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ أي ما جعل الله الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾ أي بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتسكن إليه نفوسكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق، ليست إلا من عنده عزٌّ وجلٌّ، فعلى المسلم أن لا يتوكل إلا على الله ولا يحسب النصر بالأسباب، ولا ييأس بفقدانها لأن النصر بيد الله، والإعانة منه سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ لا يُغالب في حكمه ولا يُنازع ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٠١/٧ وتتمته «فألقوا فيها، فوقف النبي ﷺ على القلب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال له ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ﴾ أي يجعله غاشياً لكم ومحيطاً بكم والنعاس أول النوم قبل أن يثقل ﴿ أَمْنَةً ﴾ أي أمناً مما حصل لكم من الخوف ﴿ مِّنْهُ ﴾ تعالى، أي فتنعسون أمناً كائناً منه تعالى، وكان ذلك النعاس معجزة، لأنه خارق للعادة، لأن حصول النوم، عند الخوف الشديد بعيد عادة، وبالنوم حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم من الله تعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وكان هذا قبل النعاس كما روي عن مجاهد ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ من الحدث الأصغر والكبير ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي وسوسته وتخويفه، رُوي عن ابن عباس أن المشركين سبقوا المسلمين إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون على غير ماء، واحتلم بعضهم في النوم، وكانت منازلهم على كثيب رمل أعفر، تسوخ فيه الأقدام، فوسوس الشيطان إليهم وقال: يا أصحاب رسول الله، تزعمون أنكم على الحق، وأنكم تصلون على غير وضوء، وعلى الجنابة، وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لما سبقكم المشركون إلى الماء، فحزنوا حزناً شديداً، فأُنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادي، وتوضؤوا واغتسلوا، وسقوا الركاب، وملؤوا أسقيتهم، وتلبّدت الأرض، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وكان ذلك دليلاً على حصول النصر ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بالثقة بلطف

الله تعالى ونصره، بمشاهدة طلائعه، أتى بـ «على» قصداً للاستعلاء وفيه إيماء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها، وفي ذلك من إفادة التمكن ما لا يخفى ﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ﴾ بالماء ﴿الْأَقْدَامَ﴾ فلا تسوخ في الرمل، والضمير للربط أي جعلهم صابرين غير فارين ولا متزلزلين.

﴿إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَفَبِمَعَكُمْ﴾ أي بأني بينكم على تثبيت المؤمنين ﴿فَقَبِلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المراد بالتثبيت: الحمل على الثبات في موطن الحرب، والجد في مقاساة شدائد القتال، وكان الملك يتشبه بالرجل، فيأتي ويقول: إني سمعت المشركين يقولون: لئن حملوا علينا لنُكشَفْنَ، ويمشي في الصفين ويقول: أبشروا فإن الله تعالى ناصركم، وقال الزجاج: كان بأشياء يلقونها في قلوبهم بالإلهام ﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الخوف تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين، والرعب: الخوف وانزعاج النفس، بتوقع المكروه ﴿فَأَضْرِبُوا﴾ أمر للملائكة وقيل: بل أمر للمؤمنين، والآية ظاهرة فيما يدعيه الجمهور، من وقوع القتال من الملائكة ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس، وقيل فوق هنا بمعنى على، أي فاضربوهم على أعناقهم ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أطراف اليدين والرجلين، وقيل: هي الأصابع.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي بسبب كفرهم وعصيانهم أمر رسولهم ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الإظهار في موضع الإضمار، لتربية المهابة، والإشعار بعلّة الحكم، والمراد من المشاقة هنا المخالفة، أي ذلك العذاب واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي مخالفته بوجه من الوجوه ﴿فَكَارَتْ لَهُمْ شِدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي يعاقبه الله تعالى، فإن عقاب الله شديد العقاب.

﴿ذَلِكَ﴾ الخطاب مع الكفرة، على طريق الالتفات، وهو إشارة إلى القتل والأسر الذي نزل بهم ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلاً في الدنيا لأن ذلك

يسير بالإضافة إلى المؤجل، الذي أعدّه لهم في الآخرة، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الواو بمعنى مع، أي ذوقوا هذا العذاب العاجل، مع أن لكم عذاب النار في الآخرة أجلاً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى
فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب عام للمؤمنين فيما سيقع من الوقائع والحروب، جيء به في تضاعيف القصة اعتناءً بشأنه ومبالغة في حقهم على المحافظة عليه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبي، إذا دبَّ على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به الجيش المتوجه إلى العدو، لأنه لكثرتهم يرى كجسم واحد، فيحس حركته في غاية البطء، أي زاحفين نحوكم ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي أدباركم فضلاً عن الفرار، بل قابلوهم وقاتلوهم والمعنى: إذا لقيتم الكفار فلا تولوهم الأدبار بالانهازام، وعدل عن لفظ الظهر إلى الأدبار، تقييحاً للانهازام.

﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم اللقاء ﴿دُبُرُهُ﴾ فضلاً عن الفرار ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي تاركاً موقفه إلى موقف أصح، للقتال منه، أو متوجهاً إلى قتال طائفة أخرى، أهمُّ من هؤلاء، وإما بالفرار للكرِّ بأن يخيّل عدوه أنه منهزم، ليغرّه ويخرجه من بين أعوانه، ثم يعطف عليه وحده، أو مع من في الكمين من أصحابه، وهو من باب خُدع الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ أي منضمّاً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليقاتل معهم ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي رجع ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم كائن ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَمَا وَدَّ جَهَنَّمُ﴾ أي ومسكنه الذي يأوي إليه هو نار جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم

مأوى له، والفرار من الزحف من أكبر الكبائر، وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف، لقوله تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ وعلى هذا أكثر أهل العلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئَلَّيْ الْيَوْمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾
وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاء جواب شرط مقدر كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ خطاب للرسول ﷺ، وهو إشارة إلى رميه ﷺ فلما التقى الجمعان، أتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فتناول ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم، وقال: شأهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، والمعنى: وما فعلت أنت يا محمد، تلك الرمية حقيقة، حين فعلتها صورة، ولكن الله خلقها، حين باشرتها على أكمل وجه، حيث أوصلها إلى أعينهم جميعاً، واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه تعالى، وإنما لهم كسبها ﴿وَلِئَلَّيْ الْيَوْمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ أي ليعطيهم من عنده تعالى ﴿بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أي عطاء حسناً، بالنصر والغنيمة، والأجر والثواب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى جميع ما ذكر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أي المقصد من قتالهم إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين، وإبطال حيلهم وتآمرهم.

﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج، تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، والمعنى: إن تستنصروا على الجندين وأهداهما ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ أي جاءكم النصر، سمي إهلاكهم نصراً على طريق التهكم، أي فقد جاءكم الهلاك، فالتهمكم في الفتح، حيث وُضع موضع الهلاك ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ عن الكفر والحرب، ومعاداة الرسول ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الحرب الذي ذقتم غائلته لما في الانتهاء من السلامة من القتل والأسر ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لقتال النبي ﷺ ﴿نَعُدْ﴾ لما شاهدتموه من نصر ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ﴾ أي لن تدفع عنكم ﴿فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم التي تجمعونها ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء أو المضار ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فتتكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة، لأن سنة الله عز وجل جارية، في نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا﴾ أي تتولوا ﴿عَنْهُ﴾ عن الرسول ﷺ وأعيد الضمير إليه ﷺ لأن المراد هو الأمر بطاعته، والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعته تعالى للتمهيد، والتنبيه على أن طاعته ﷺ من

طاعته تعالى، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١) ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملة حالية، واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي، أي لا تتولوا عنه ﷺ والحال أنكم تسمعون القرآن، الناطق بوجوب طاعته، سماع فهم وإذعان.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي لا تكونوا بالمخالفة ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي كالكفرة والمنافقين الذين قالوا سمعنا بمجرد الادعاء، من غير فهم وإذعان ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي والحال أنهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به، ولا يفهمونه حق فهمه، والمنفي سماعٌ خاص، لكنه أتى به مطلقاً، للإشارة إلى أنهم نزلوا منزلة من لم يسمع أصلاً، بجعلهم كالدواب والأنعام، ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي إن شر ما يدبُّ على الأرض، أو شرَّ البهائم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿الْأَصُمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحقَّ ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون به، وصفوا بهما لأن خلق الأذن واللسان لسماع الحق والنطق به، وحيث لم يوجد منهم شيء من ذلك، صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأساً، ثم وُصفوا بعدم التعقل، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ﴾ تحقيقاً لفجاعة سوء حالهم، فإن الأصم الأبكم، إذا كان له عقل، ربما يفهم بعض الأمور بالإشارة، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وإذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شر الدواب، حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ شيئاً من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم إلى تحري الحق واتباع الهدى ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تدبر وتفهم، ولوقفوا على حقية الرسول ﷺ وآمنوا به وأطاعوه، ولكن علم الله تعالى أن لا خير فيهم فلم يسمعهم، لعدم الفائدة، وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ

(١) سورة النساء، آية: ٨٠.

﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عناداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بحسن الطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يورثكم الحياة الأبدية، في النعيم الدائم، ومن الجهاد الذي أعزكم الله به، كما روي ذلك عن عروة بن الزبير، وقال قتادة: القرآن لما روي أن النبي ﷺ مرَّ على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فلم يجب وأسرع في صلاته ثم جاءه فقال ﷺ: «ما منعك من إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: ألم تخبر فيما أوحى ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى»^(١) قيل: إن الدعاء كان لأمر لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، كما إذا رأى أعمى وصل إلى بئر، ولو لم يحذره لوقع فيه ولهلك ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أصل الحول - كما قال الراغب - تغير الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغير قيل: حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا، وهذا غير متصور في حق الله تعالى، فهو بيان عن غاية القرب من العبد، أي يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزمته،

(١) أخرجه النسائي، وفي البخاري ومسلم أن ذلك وقع مع أبي سعيد بن المعلى، دعاه ﷺ وهو يصلي فلم يجبه، ثم أتاه فقال: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال له: لأعلمنك سورة هي أعظم سور القرآن.. وذكر الحديث، انظر فتح الباري على البخاري ٣٠٧/٨.

ويغتر مقصده، وفيها تنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب، وحث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت، أو غيره وفي الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يُصْرَفُه حيث يشاء»^(١) أخرجه مسلم. ويراد به كمال التصرف فيه، كتصرفه في قلب واحد ﴿وَأَنَّهُ﴾ أي الله عز وجل ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، فسارعوا إلى طاعته وإلى طاعة رسوله.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي لا تختص إصابة عذابها، بمن يباشر الظلم منكم، بل يعثه وغيره، والمراد بالفتنة الذنب والمعصية كإقرار المنكر بين أظهركم، وظهور البدع، والتكاسل عن الجهاد، والخطاب إذا كان عاماً للأمة، وفسرت الفتنة بإقرار المنكر، لا يخبيء الأشكال على عموم الإصابة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ لأنه كما يجب على مرتكب الذنب الانتهاء عنه، يجب على الباقيين رفعه، وإذا لم يفعلوا كانوا آثمين، فيصيبهم ما يصيبهم لإثمهم، لما روي عن أبي بكر الصديق قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِقَابٍ»^(٢) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وكذا لمن أقر من انتهك محارمه.

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٤ في القَدَر، وتتمته ثم قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ مَصْرِفَ القلوب، ثَبِّتْ قلوبنا على طاعتك» ورواه الترمذي رقم ٢١٤١ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعين الرحمن.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في تفسير سورة المائدة، وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَيَقَاتِلُوكُمْ وَيَتَدَبَّرُوا بِخِصْمِكُمْ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي في العَدَد وقلة السلاح والعُدَد ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مكة، يستضعفكم المشركون والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة، فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ كفار قريش، أي واذكروا حالكم وقت قتلكم وذلتكم وخوفكم من اختطافكم ﴿فَيَقَاتِلُوكُمْ﴾ إلى المدينة وجعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعدائكم ﴿وَيَتَدَبَّرُوا بِخِصْمِكُمْ﴾ على الكفار أو بمظاهرة الأنصار يوم بدر أو بإمداد الملائكة ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم، وقيل: هي عامة في جميع ما أعطاهم من الأطعمة والمنافع ﴿لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجليلة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ . في أبي لبابة وذلك لما حاصر رسول الله ﷺ يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، وسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه بني النضير على أن يسيروا إلى أريحا فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان أبو لبابة مناصحاً لهم، لما أن ماله وعياله كان في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه، قال أبو لبابة: ما زالت قدماي عن مكانهما حتى علمتُ أنني قد خنتُ رسول الله ﷺ

فنزلت الآية ﴿وَتَخَوُّوا أَمَنَتَكُمْ﴾ أي ما ائتمنتم عليه من الدين وغيره فيما بينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون وباله .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ أي محنة من الله تعالى، ليلوكم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة، كأبي لبابة، ولعل الفتنة في المال أكثر منها في الولد، ولذا قدمت الأموال على الأولاد، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر رضى الله عليهم، وراعى حدوده فيهم .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرّون ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ بسبب ذلك الاتقاء ﴿فُرْقَانًا﴾ أي هداية ونوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي يسترها ويمحو ما سلف منها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز عنها في الأخرى، فلا تكرار، وقيل: المراد ما تقدم وما تأخر، لأن الآية في أهل بدر، ففي الحديث «لعل الله تعالى اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وعدوه على التقوى، فضلٌ منه وإحسان كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمله ثم أنه عز وجل لما ذكر بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ النعمة العامة للكل، ذكر نبيه ﷺ النعمة الخاصة به بقوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في المغازي، وانظره كاملاً في فتح الباري ٣٠٥/٧ .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تذكّار لما مكّرت قريش به ﷺ حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكّره، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك، وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك في دار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثاق وإليه ذهب الحسن ومجاهد، أو بالحس في بيت كما روي عن عطاء ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كلّهم بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، وذلك على ما ذكر ابن اسحق، أن قريشاً لما رأّت أن رسول الله ﷺ قد كان له شيعة وأصحاب، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، فحذروا خروج رسول الله ﷺ فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره، فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوه، فقال رئيسهم: بشّ الرأي، يأتيكم من يقاتلونكم من قومه ويخلصه من أيديكم، وقال أبو الأسود: أن تخرجوه من أرضكم، فقال رئيسهم: بشّ الرأي لأنه يفسد قوماً غيركم ويقاتلونكم، فقال أبو جهل: إني أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلّهم، فإذا طلبوا العقل، - أي الفدية - عقلناه، فقال رئيسهم: صدق، فتفرقوا على رأيه^(١)، فأتى جبريل فأخبره، وأمره بالهجرة، فبيّت علياً في مضجعه، فخرج هو مع أبي بكر إلى الغار، وإلى هذه الحادثة تشير الآية الكريمة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي ويحتالون ويتآمرون عليك يا محمد، ويدبر لك ربك ما يُبطل مكّره، ويفضح أمرهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ أي مكّره تعالى أنفذ من مكّره، وأبلغ تأثيراً، فسمى تعالى إبطال تأمرهم، وردّ كيدهم في نحورهم مكراً، على طريق المشاكلة أي أنه تعالى أبطل مكّره، فإن مكّره تعالى في خيريّته، أبلغ من مكر الغير في شرّيته^(٢).

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٠/١.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢٧٥/٦: ﴿ويمكر الله﴾ هو إبطال لمكّره، وردّ له ودفع في صدره حتى لا ينجع، فسمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في المعنى إلا هذا، وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على =

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِمَّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۖ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ أي القرآن ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ هذا قول النصر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاضيه، أو قول الذين ائتمروا في أمره ﷺ وهذا من فرط عنادهم، وغاية مكابرتهم، إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوا، فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحدّاهم وقرّعهم بالعجز عشر سنين، فلم يعارضوا سورة منه مع أنفتهم، وفرط استنكافهم، وأن يُغلبوا خصوصاً في باب البيان وهم أساطينه وأربابه!! ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلا ما يكتبونه من أخبار الماضين من الخرافات والأباطيل.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِمَّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۖ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قائل هذا النصر أيضاً على ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير، وأخرج البخاري عن أنس بن مالك أنه «أبو جهل»^(١) وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس أن قريشاً قال بعضها لبعض: هل أكرم الله تعالى محمداً من بيننا؟ اللهم إن كان هذا.. الخ وهو أبلغ في الجحود من القول الأول، لأنهم عدّوا حقيقته محالاً، فلذا

= ما يُفهم فيه في اللغة، فغير جائز فيه أن يقال: الله يمكر، وإنما قولنا ﴿ويمكر الله﴾ كما تقول في رجل شتم الأمير، فقتله الأمير: هذا هو الشتم، فتسمي العقوبة باسم الذنب، وقوله ﴿خير الماكرين﴾ أي أقدرهم وأقواهم جانباً. اهـ.

(١) فتح الباري على البخاري ٣٠٨/٨.

علّقوا عليها طلب العذاب، الذي لا يطلبه عاقل، والمعنى: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك، فأمطر الحجارة علينا عقوبةً على إنكاره، أو اتتنا بعذاب أليم سواه، والمراد منه: التهكم، وإظهار الجزم على كونه باطلاً.

﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لَعْنَتِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ جواب لكلمتهم الشنيعة، وبيان لموجب إمهالهم، لأن سنته تعالى أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال، ما دام نبيّهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصّدون بالعذاب، إذا هاجر ﷺ ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لَعْنَتِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ والمراد باستغفارهم: إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين المستضعفين بعد الهجرة، وإما دعاء الكفرة بالمغفرة، على معنى: أنهم لو استغفروا لم يُعذبوا.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾؟ أي أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ أي لاحظ لهم في ذلك، وهم معذبون لا محالة، وكيف لا يُعذبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وحالهم الصد عن ذلك حقيقة كما فعلوا عام الحديبية، وحكما كما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه حتى ألجؤوهم للهجرة وكانوا يقولون: نحن ولاية البيت فنصد من نشاء، ونُدخل من نشاء، فردّ الله عز وجلّ هذا القول بقوله ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي ما كانوا مستحقين ولاية أمره مع شركهم ﴿إِنْ أَوْلِيَائُهُ﴾ أي ما أولياؤه ﴿إِلَّا الْمُنَافِقُونَ﴾ أي الذين يتقون الشرك ولا يعبدون غير الله، والمراد من المتقين المسلمون، وهذه المرتبة الأولى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية

لهم عليه كأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكل، كما يُراد بالقلة العدم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، والمراد بالبيت: المسجد الحرام الذي صدّوا المسلمين عنه، والتعبير عنه بالبيت للإشارة إلى أنه بيت الله تعالى فينبغي أن يعظّم بالعبادة، وهم لم يفعلوا ﴿إِلَّا مَكَاةً﴾ أي صغيراً وهو فعال بضم أوله كسائر أسماء الأصوات إلا ما شذ كالنداء، من مكأ يمكو إذا صفر ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً مأخوذاً من الصدى، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته، روي أنهم كانوا يطوفون عراً، الرجال والنساء مشبّكين بين أصابعهم، يصفّرون فيها ويصفّقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني: القتل، والأسر يوم بدر، وقيل: عذاب الآخرة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، أي بسبب كفركم وضلالكم، اعتقاداً وعملاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جُرُر، أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيبت قريش ببدر، قيل لهم: أعينونا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه

ثأرنا!! ففعلوا، والمراد بسبيل الله: دينه ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي ندماً وغماً، لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتها نصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها مبالغة، وضمير تكون للأموال على معنى تكون عاقبتها عليهم حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي في مواطن آخر بعد ذلك في الدنيا آخر الأمر، وهو من دلائل النبوة لأنه خبر قبل وقوعه فكان كما أخبر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أصروا على الكفر من هؤلاء ولم يسلموا ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يساقون لا إلى غيرها، والمقصود من هذا النص إخبار بأنهم لا يستفيدون من بذل أموالهم إلا الخيبة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح، واللام متعلقة بيحشرون، وقد يراد من الخبيث ما أنفقه المشركون لعداوة رسول الله ﷺ ومن الطيب ما أنفقه المسلمون لنصرته ﷺ ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض، حتى يترابوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، كما يكون في الكافرين^(١) ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله وأما المال المنفق في عداوة الرسول ﷺ وجعله في جهنم، لتكوى به جباههم وجنوبهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الكفار ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُلُّهُمْ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ ﴿٤٠﴾

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فبشرهم بعذاب أليم.

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي المعهودين، وهم أبو سفيان وأصحابه، أي قل لأجلهم ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ عما هم فيه من معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من ذنوبهم التي من جملتها المعاداة، والإنفاق في الضلال، وهذا يدلُّ على أن الكافر بعد الإسلام، لا يؤاخذ بشيء مما مرَّ، وقال ﷺ «الإسلامُ يجبُ ما قبله»^(١) ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ إلى قتاله ﷺ أو إلى المعاداة، على معنى: إن داوموا عليها ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي عاداتُ الله الجارية في الذين تحزَّبوا على الأنبياء، من نصر المؤمنين عليهم، وخذلانهم وتدميرهم.

﴿ وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ عمَّ الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمَّنه قوله سبحانه: ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الوعيد ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ لا يوجد فيهم شرك، كما روي عن ابن عباس، والحسن، وقيل: المراد حتى لا يفتتن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ ﴾ وتضمحل الأديان الباطلة كلها، إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا ﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم.

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان ولم ينتهوا عن الكفر ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ ﴾ ناصركم فثقوا ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نِعَمَ الْمَوْلَى ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿ وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴾ لا يغلب من نصره.

(١) هذا طرف من حديث في قصة وفاة الصحابي «عمر بن العاص» رضي الله عنه أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ١٢١ وفيه قول النبي ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ١٠٥/٩».

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ روي عن الكلبي أنها نزلت في بدر، وهو الذي يقتضيه كلام الجمهور، والغنم بمعنى الربح، وكذلك المغنم، والغنيمة، وفسروها بما أخذ من الكفار قهراً، بقتالٍ أو إيجاف فما أخذ اختلاساً لا يُسمى غنيمة ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط، خلاً أَنْ سَلَبَ المقتول للقاتل، إذا أنفله الإمام، وكذا الأراضي المغنومة ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ والمراد قسم الخمس على الخمسة الموصوفين في قوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وإعادة اللام في ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ، وقراة النبي ﷺ من بني هاشم، وبني عبد المطلب، وكيفية قسمتها أنها كانت في عهد النبي ﷺ على خمسة أسهم، سهم له ﷺ، وأربعة أسهم للأصناف الأربعة، وأما بعده ﷺ فسهمه للمسلمين وكذا سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرائهم، وقيل: سهم الرسول لولي الأمر بعده، وأما الأخماس الأربعة فتقسم بين الغانمين، للراجل سهم ولل فارس سهمان ﴿إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا﴾ عطف على الاسم الجليل، أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أريد به من الملائكة والآيات ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ﴾ أي الفريقان من المؤمنين، والكافرين، سُمِّيَ بالفرقان، لفرقه بين الحق والباطل ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه نصركم مع قلتكم، وكثرة أعدائكم.

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤١)

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا ﴾ العدوَّة: شَطُّ الوادي، وأصله من العدو والتجاوز، والدنيا تأنيث الأدنى، أي إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأقرب إلى المدينة ﴿ وَهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى ﴾ أي البعدى من المدينة، وهي تأنيث الأقصى ﴿ وَالرَّكْبِ ﴾ أي العيرُ وأصحابها «أبو سفيان» وأصحابه، وهو اسم جمع ركب ﴿ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي في مكان أسفل من مكانكم، يعني ساحل البحر، وفائدة هذا التوقيت الإخبار عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته، وضعف شأن المسلمين، وأنَّ غلبتهم في مثل هذه الحال، ليست إلَّا صنعاً من الله تعالى، وباهر قدرته ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال، ثم علمتم حالكم وحالهم، لاختلفتم أنتم في الميعاد هبةً منهم، ويأساً من الظفر عليهم ﴿ وَلَكِنْ ﴾ جمع بينكم على هذه الحالة من غير ميعاد ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ حقيق بأن يفعل، وهو نصر أوليائه، وقهر أعدائه ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أي ليموت من يموت عن حجة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، فلا يبقى محلٌّ للتلعلل بالأعذار، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه.

﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادْتَ كَثِيرًا لَفُشِّتُمْ وَلَلَنَنْزِعَنَّهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٤٢)
وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٤٤)

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا ﴾ الجمهور على أنه ﷺ أرى ما أرى في النوم، وهو الظاهر المتبادر، وحكمة إراءتهم قليلاً أن يخبر أصحابه، فيكون ذلك تثبيتاً لهم ﴿ وَلَوْ أَرْنَكُمُ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ ﴾ أي لجبستم ﴿ وَلَنَنْزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي أمر القتال وتفرقت آراؤكم في الثبات، والفرار ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ إِنَّهُمْ عَلِيمُ بَدَاتِ الصُّدُورِ ﴾ والمراد أنه تعالى يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجبن، والصبر والجزع، ولذلك دبر ما دبر.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ أي إذ يبصركم أيها المؤمنون ﴿ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجلٍ إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة ﴿ وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، قللهم في أعينهم قبل التحام القتال، ليجترؤوا عليهم، ولا يستعدُّوا لهم، ثم كثَّروهم حتى يرونها مثلهم، لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم، وتكسر قلوبهم، وهذا من عظام آيات تلك الواقعة، فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدِّ، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبطار بعض دون بعض ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كرَّره لأن المراد بالأمر الأول، القتال على الوجه المحكي، وههنا إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ ﴾ أي تصير ﴿ الْأُمُورُ ﴾ فيصرفها كيف يريد، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه، وهو الحكيم المجيد.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي حاربتم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء ممّا غلب استعماله في القتال ﴿فَأَتَّبِعُوا﴾ للقائهم في مواطن الحرب ولا تفروا ولا تنهزموا ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ مستمدين منه مستعينين به، مترقبين لنصره مستظهرين لذكره ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصره والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل عليه فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال وفي الحديث الشريف «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا..»^(١) الحديث. وإنما نهى ﷺ عن التمني، لما فيه من صورة الإعجاب، والثوق بالقوة، ويتضمن قلة الاهتمام بالعدو وتحقيرهم، وهذا يخالف الاحتياط.

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما تأتون وما تذرّون، فيندرج فيه ما أمر به ههنا اندراجاً أولياً ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر وأحد، تنازع القوم أي اختلفوا والتنازع أن يحاول كل واحد من الاثنين، أن ينزع صاحبه مما هو عليه ﴿فَنَفْسِلُوا﴾ فتجنبوا عن عدوكم، وتضعفوا عن قتالهم ﴿وَنَذْهَبَ رِيحَكُمْ﴾ قوتكم ودولتكم، فإنها مستعارة للدولة، من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه، مشبهة بها في هبوبها ونفوذها ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ على شدائد الحرب ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالإمداد والإعانة.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ١٠٩/٦ ومسلم رقم ١٧٤٢ في الجهاد أيضاً.. وتمة الحديث «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٥٦٨/٢.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ لَا دِينَ لَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤٩) .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ يعني أهل مكة، حين خرجوا منها لحماية العير ﴿ بَطَرًا ﴾ فخرًا وأشرًا ﴿ وَرِشَاءَ النَّاسِ ﴾ ليشنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة، أتاهم رسول أبي سفيان وقال: ارجعوا فقد سلمت غيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدرًا، فنشرب فيها الخمر، وننحر الجزور، ونطعم بها مَنْ حَضَرْنَا حتى تهابنا العربُ، فوافوها ولكن سَقُوا كَأْسَ الْمَنِيَا بدل الخمر، وكانت أموالهم غنائم، والمقصود من الآية، نهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم، في البطر والرياء، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص ﴿ وَيَصُدُّوكَ ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي ليمنعوا عن دين الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه، وفيه وعيد وتهديد.

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ ﴾ بأن شجّعهم على لقاء المسلمين، وزين لهم أعمالهم في معاداة المؤمنين، بأن وسوس إليهم ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ ألقى في روعهم، وخيّل إليهم أنهم لا يُغلبون، لكثرة عددهم وعُدَّتِهِمْ فالقول مجاز عن الوسوسة ومعنى ﴿ جَارٌ لَكُمْ ﴾ أي معين وحافظ لكم، والجار الذي يجير غيره أي يؤمنه مما يخاف ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئَتَانِ ﴾ أي تلاقى الفريقان المسلمة، والكافرة، ورأى

اللعينُ الملائكة ﴿ نَكْصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ﴾ رجع القهقري، و ﴿ نَكْصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ﴾ مثلٌ يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد، ففي الكلام استعارة تمثيلية، شبه بطلان كيده بعد تزيينه، بمن رجع القهقري عما يخافه ﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ تبرأ منهم لما رأى إمداد الله لهم بالملائكة، وخاف عليهم، ويحتمل أن يكون معنى ﴿ أَخَافُ اللَّهَ ﴾ أخاف أن يصيبني بمكروه من الملائكة ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ من كلام اللعين وهو الظاهر، وكذب عدو الله في قوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ فلو خاف الله لعبده وأطاعه، ولكنه أراد أن يبرر سبب انهزامه من المعركة.

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي الذين لم يطمثوا إلى الإيمان بعد، وبقي في قلوبهم شبهة ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ ﴾ يعنون المؤمنين الذين مع الرسول ﷺ ﴿ دِينُهُمْ ﴾ حتى تعرضوا لما لا قدرة لهم عليه، فخرجوا وهم ثلاثمائة وسبعة عشر إلى زهاء الألف، توهماً أنهم ينصرون بسببه، روي عن الحسن أن هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر، وأهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ جواب لهم، ورد لمقاتلتهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يذل من استجار به، ولا يُخذل من توكل عليه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته ما تستبعده العقول، وتحار في فهمه ألباب الفحول.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾ خطاب للنبي ﷺ أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب، والمضارع هنا بمعنى الماضي، لأن «لو» ترد المضارع ماضياً أي ولو رأيت ﴿ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ ببدر والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو ترى حالهم حين تقبض أرواحهم الملائكة ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾

وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٥٦﴾ أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، يعني جميع أجسادهم، ويقولون: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، فهو بشارة لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمر، مما هم فيه، والتعبير ﴿ذوقوا﴾ قيل: للتهكم، وفيه نكتة أخرى، وهو أنه قليل من كثير، وأنه مقدمة وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة، وجواب لو محذوف، أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف.

﴿ذَلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، و«ظلام» لنفي الظلم بأنواعه، وهي للنسبة مثل: البراز، والعطار، والنجار، أي لا يُنسب إليه الظلم أصلاً.

﴿كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وشأنهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٩﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب منوطاً بأعمالهم السيئة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي

ذلك كائن بسبب أن الله تعالى ﴿لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ أي لم ينج له سبحانه، ولم يصح في حكمته، أن يكون بحيث يغير نعمة أي نعمة كانت أنعم بها ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من الأقوام ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي ذواتهم من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها، وقت ملابتهم للنعمة، ويتصفوا بما ينافيها، كحال قريش المذكورين، حيث كانوا قبل البعثة عبدة أصنام، مستمرين على حال مصححة، لإفاضة نعم الإمهال، فلما بُعث النبي ﷺ غَيَّرُوا عَلَى أَسْوَأَ حال منها حيث كذبوه ﷺ وعادوه ومن تبعه من المؤمنين، وتحزَّبوا عليهم، وقطعوا أرحامهم، فغَيَّرَ اللهُ تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال، ووجَّه إليهم نبال العقاب والنكال، وأصل ﴿يَكْ﴾ يكن فحذفت النون تخفيفاً لكثرة استعماله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وبسبب أنه تعالى سميع عليم، يسمع ويعلم جميع ما يأتون ويدرون.

﴿كَذَّابٍ أَلْفِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ التكرار للتأكيد، وقيل: الأول فيما فعلوه، والثاني فيما فعل بهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ إخبار بترتب العقوبة عليه ﴿يَذُنُّبِهِمْ﴾ أي معاصيهم المتفرعة على كفرهم ﴿وَأَعْرَفْنَاهُ أَلْفِرْعَوْنَ﴾ عطف على أهلكنا وفيه إيذان بكمال هول الإغراق ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل من الأمم المكذبة ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعصية، وهم الواضعون الكفر والمعصية مكان الإيمان والطاعة، ولذلك أصابهم ما أصابهم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَاِمَّا نَشَقُّنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ بعدما شرح أحوال المهلكين، شرع في بيان أحوال البعض منهم، وجعلوا شر الدواب لا شر الناس، إيماء إلى أنهم بمعزل

من مجانستهم، وإنما هم من جنس الدواب، ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أصرُّوا على الكفر، ولجُّوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فلا يتوقع منهم الإيمان لأنهم مطبوعون على الكفر عن ابن عباس: هم نفر من عبد الدار.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ المعاهدة هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين، أي أخذت منهم عهدهم بأن لا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض، وكونهم على نية في كل حال، أي ينقضون عهدهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله في غدرهم، ويستمرون على النقض، ولا يبالون بما فيه من العار والنار، والآية نزلت في يهود بني قريظة، عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح فقالوا نسينا، ثم عاهدهم ﷺ فنكثوا ومالؤوا عليه ﷺ يوم الخندق، وركب كعب إلى مكة فحالفهم على حرب رسول الله ﷺ.

﴿فَإِمَّا تَثَقَفْتُمُ﴾ شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم، أي إذا كان حالهم كما ذكر فإمَّا تظفرنَّ بهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾ أي ففرق تفريقاً عنيفاً، بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب، ما يوجب أن تنكل ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أي من وراءهم من الكفرة، والتشريد: التفريق مع الاضطراب فالمعنى: إن ظفرت بهؤلاء الذين ينقضون العهد مراراً فافعل بهم فعلاً ليخاف من وراءهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يتعظون بهم، فيرتدعوا عن النقض وعن الكفر.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ﴾

﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿فَأَنذِرْ لَهُمْ﴾ أي فاطرح إليهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ على طريق مستوٍ، بأن تظهر لهم النقض، كي لا يكون من قبلك شائبة خيانة^(١) ولزوم الإعلام عند أكثر العلماء، إذا لم تنقض مدة العهد، أو لم يستفص نقضهم له، أمّا إذا انقضت المدة، أو استفاض النقض وعلمه الناس، فلا حاجة إلى ما ذكر، ولهذا غزا النبي ﷺ أهل مكة، من غير نبذ لمعاونتهم بني كنانة، على قتل خُزاعة، حلفاء النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليل الأمر بالنبذ، كأنه قيل: وإما تعلمن من قوم خيانة، فانبذ إليهم، ثم قاتلهم، إن الله لا يحب الخائنين، وهم من جملتهم، وعن عمر بن عتبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يشدّ عقده، ولا يحلّها، حتى ينقضي أمدّها، أو ينبذ إليهم على سواء»^(٢).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ٥٩ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ٦٠ .

(١) قال النحاس في إعراب القرآن ١٩٢/٢: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثله، على اختصاره وكثرة معانيه، والمعنى: إمّا تخافنّ خيانة من قوم بينك وبينهم عهد، فانبذ إليهم العهد، أي قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة، فأوجز الله ذلك كله في هذه الآية الكريمة ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ والله درّ التنزيل.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١١١/٤ وأبو داود في الجهاد ٨٣/٣ والترمذي في السير ٢٠٣/٥.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي لا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين، أي مفلتين من أن يُظفر بهم، والاقتصار على دفع هذا التوهم، للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حول وهمهم، وإنما الذي يمكن أن يدور في خلدكم حب النجاة من الهلاك ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ في أنهم في قبضة الله عز وجل، لا يعجزون الله من الانتقام في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ خطاب لكافة المؤمنين، أي أعدوا لقتال الكفار على الإطلاق ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب أطلق عليه القوة مبالغة، وإنما ذكر هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد، لا يتأتى في كل زمان، عن عتبة بن عامر أنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، قَالَهَا ثَلَاثًا»^(١) والظاهر العموم، إلا أنه خصَّ الرمي وهو من قبيل قوله ﷺ: «الحجَّ عرفة» فهذا لا ينفي غيره، لأن معنى الآية على وجوب الاستعداد لجهاد العدو، بجميع ما يمكن من الآلات، وكل ذلك من فرض الكفاية، والتاريخ سجّل السيف سلاحاً في الحروب، ومرت العصور، وتطوّر السلاح إلى السيارات المدرّعة، والطائرات القاذفة، والغواصات المدمرة، والغازات الخانقة وغيرها، والشعوب الإسلامية مشمولة بهذا النداء الإلهي ﴿وَأَعِدُّوا﴾ فالمراد من القوة معنى شامل لأنواع القوى، فقد عمّ الداء العضال، واشتد النكال، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال، وتعيّن على أئمة المسلمين الاستعداد التام، ولعل فضل ذلك الرمي، يثبت لهذا الرمي في زماننا، لقيامه مقامه في الذبّ عن بيضة الإسلام ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تربط

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٦٤/١٣ بلفظ «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» كررها ثلاث مرات، ورواه أبو داود رقم ٢٥١٥ وابن ماجه رقم ٢٨١٣ ولم يخرج به البخاري.

في سبيل الله، والرباط بالكسر ما تشدُّ به الدابة، والمراد به هنا: المربوط مطلقاً، إلا أنه استعمل في الخيل، وخصَّ بها لأنها آلة الجهاد في كل زمان، والعطف على القوة للإيدان بفضلها على سائر أفرادها، كعطف جبريل على الملائكة، في قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١) ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي تخوفون به ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم كفار مكة خُصُّوا بذلك لغاية عتوهم، ومجاوزتهم الحدَّ في العداوة ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة قيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون، وقوله سبحانه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي يعلمهم على الحقيقة، ويعلم خطرهم وضررهم، وما هم عليه من العداوة ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعداد القتال أو لسائر وجوه الخير ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يؤدي بتمامه إليكم جزاؤه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب، وفي التعبير عن ذلك بالظلم، مع أن له تعالى أن يفعل ما يشاء، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١١)
 وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ
 وَبِالْمُؤْمِنِينَ^(١٢) وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ
 بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١٣).

﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ جَنَحَ: مال، أي وإن مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ للصلح والاستسلام ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ للسلم أي فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فوض أمرك إليه سبحانه، فإن الله يعصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، فيؤاخذهم بما يستحقونه، ويردُّ كيدهم في نحورهم.

(١) سورة البقرة، آية: ٩٨.

﴿وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بإظهار السُّلم والمحبة، وإبطان الحرب والكيد ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فاعلم بأن الله كافيك من شرورهم، وناصرك عليهم، فلا تبال بهم ﴿هُوَ﴾ عز وجل ﴿الَّذِي أَيْدِكَ بِصُرُوءِ﴾ تعليل لكفايته تعالى إياه ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ مع ما جُبلوا عليه من الحميَّة والعصبيَّة، والتهالك على الانتقام، بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة ^(١) ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لتأليف ما بينهم ﴿مَا أَفْتَى بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لتناهي عداوتهم، وقوة أسبابها ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ﴾ جلَّت قدرته ﴿أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ قلباً وقلباً ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ كامل القدرة والغلبة، لا يستعصي عليه سبحانه شيء مما يريدہ ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم المصالح فيوجدھا بمقتضى حكمته عز وجل، ومن آثار حكمته تدبير أمورهم، على وجه أحدث فيهم التواء والتحاب، فاجتمعت كلمتهم وصفوفهم.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾

(١) لا شك أن تأليف القلوب مع ما كانوا عليه من العداوة والبغضاء، من أعظم الآيات الربانية، فقد كانت الدماء تجري بينهم كالأنهار، حتى جاءهم الإسلام فجعلهم إخوة متحابين في الله، وانظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٥١٤/٤ فقد أجاد فيه وأفاد، وكذلك الزجاج في معاني القرآن ٤٦٨/٢.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ شروع في بيان كفايته تعالى إياه، في جميع أموره الظاهرة والباطنة ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي كافيك الله في جميع أمورك ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كفاك وكفى أتباعك الله ناصراً، والآية نزلت في غزوة بدر حيث نصر الله جنده وأوليائه المؤمنين.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض على القتال: الحث عليه، أي بالغ في حثهم على القتال في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله المأمور به ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شرط في معنى الأمر، بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا، بعون الله وتأيده، فالجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى، وقوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بيان للألف، وهذا القيد معتبر في المائتين أيضاً ﴿يَأْتَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوهُ﴾ أي بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر، لا يثبتون عند اللقاء ثبات المؤمنين، رجاء الثواب، ولا يقاتلون امتثالاً لأمر الله تعالى، بل للحمية الجاهلية.

﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ﴾ شق ذلك على المسلمين، حين فُرضَ عليهم أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيف فقال تعالى: ﴿الآن خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾. فلما خفف الله عليهم من العدة، نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم^(١) والمراد هنا بالضعف ضعفُ البدن، لا الضعفُ في الدين وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، ولما كان الصبر شديد الأهمية، ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إشارة إلى تأييدهم، وأنهم منصورون، لأنَّ من كان الله معه لا يُغلب ولا يُقهر.

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ٣١٤/٨ كتاب التفسير.

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ٦٧
 ﴿ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٦٨ ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَانْفِقُوا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٦٩ .

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ ﴾ بيان أنَّ ما يُذكر، سُنَّةٌ مَطْرَدَةٌ فيما بين الأنبياء، أي ما صَحَّ وما استقام لنبيٍّ من الأنبياء ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ جمع أسير ﴿ حَتَّى يَتُخِجَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يكثر القتل، ويبالغ فيه، حتى يُذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله، من أئخنه المرض إذا أثقله وأئخنته الجراحة أي أوهنته بحيث لا حراك به، وأئخن في الأرض سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ حطامها بأخذكم الفداء، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ مسوق للعتاب ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه، وقمع أعدائه ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يُغَلِّبُ أوليائه على أعدائه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يعلم ما يليق بكل حال، ويخصه بها، كما أمر بالاثخان ومنع عن الافتداء، حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المنِّ بقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ لَمَّا تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين، عن ابن مسعود قال: لَمَّا كان يوم بدر، جيء بالأسرى وفيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: ما ترون بهؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم لعلَّ الله تعالى أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك، وأخرجوك، وقتلوك، مكثنا منهم نضرب أعناقهم، فدخل النبي ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً، ثم خرج ﷺ فقال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَلِيّن قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لِيَشَدِّد قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ، حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ومثلك يا

عمر كمثّل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(١) أنتم عائلة فلا يفلتن أحد إلا بفداء. قال عمر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبيكان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فقال ﷺ: على أصحابك في أخذهم الفداء، لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، فأنزل الله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى..﴾^(٢) الآية. روي أن الأسارى كانوا سبعين، فيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، وكان الفداء لكل أسير أربعون أوقية، والأوقية أربعون درهماً، فيكون مجموع ذلك ألفاً وستمئة درهم لكل أسير.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو أن لا يعاقب المخطيء في اجتهاده، أو لا يعذب أهل بدر ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي لأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، لكن الذي تسبب العفو عنه، كل ما ذكر واستدل بالآية على أن الأنبياء عليهم السلام قد يجتهدون ويأتي الوحي على خلافه، ولا يقرون على الخطأ.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم، روي أنه لما نزلت الآية الأولى، كف أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء، فنزلت هذه الآية، فالمراد مما غنمتم إما الفدية وإما مطلق الغنائم ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أكلاً حلالاً طيباً، وفائدة الإحلال إزاحة ما وقع في نفوسهم منه، بسبب تلك المعاتبة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم، من استباحة الفداء قبل ورود الإذن ﴿رَجِيمٌ﴾ يرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه.

(١) أخرجه مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب ١٣٨٣/٣، ورواه الترمذي مختصراً ٢٥٣/٥.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ في ملكتكم واستيلائتكم، كأنَّ أيديكم قابضة عليهم ﴿مِنَ الْأَسْرَى﴾ الذين أخذتم منهم الفداء ﴿إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصاً، ونيةً صحيحة، ﴿يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء، والآية نزلت في جميع أسارى بدر، وقيل: إنها نزلت في العباس، وقد روي عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: كنتُ مسلماً، لكن استكروهوني!! فقال ﷺ له: إن يكن ما تقول حقاً فالله تعالى يجزيك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك وابني أخويك «نوفل بن الحارث» و«عقيل بن أبي طالب»^(١). وروي عنه أنه قال بعد حين: «لقد أبدلني الله خيراً من ذلك، وإني أنتظر من ربي»^(٢) يعني الموعود بقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن وتاب، والظاهر أن الآية

- (١) لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر، كان معه عشرون أوقية من ذهب، فأخذت منه ولم تحسب من فدائه، وكُلف أن يفدي ابني أخيه نوفل، وعقيل، فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب، وقال النبي ﷺ لأصحابه: أضعفوا على العباس الفداء - أي خذوه مضاعفاً منه - فأخذوا منه ثمانين أوقية، فقال العباس لرسول الله ﷺ: «لقد تركتني أتكفّف الناس ما بقيت»!! فقال له ﷺ: وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أيّ الذهب؟ فقال: إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدّث فهو لك ولولدك، فقال: يا ابن أخي من أخبرك بهذا؟ قال: ربي أخبرني بذلك، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمتُ أنك رسول الله قبل اليوم، فأسلم رضي الله عنه، وأمر ابني أخيه أن يسلم، ففيهم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ الآية وانظر صفوة التفاسير ٥١٣/١.
- (٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٤١/٢.

عامة لسائر الأسرى على ما تقتضيه صيغة الجمع، ولا يأبى ذلك رواية أنها في العباس، لما قالوا من أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿وَأِنْ يُرِيدُوا﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بما أظهرها من القول، أي نقض ما عاهدوك من ألا يعودوا لمحاربتك، ولا إلى معاضدة المشركين ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل بدر، فهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته ﷺ بطريق الوعد له، والوعيد لهم، روي أنه ﷺ لما أطلقهم من الأسر تعاهد معهم أن لا يعودوا إلى محاربته ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فإن عادوا للخيانة، فسأمكنك منهم أيضاً، وأقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه يفعل بحكمته كل ما يفعله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ هم المهاجرون، هاجروا من أوطانهم حباً لله ولرسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بأن صرفوها إلى المجاهدين والسلاح وأنفقوها على المحاوليج ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق بجاهدوا، ولعلّ تقديم الأموال، لما أن المجاهدة بالأموال أكثر، وأتمّ دفعاً للحاجة، حيث لا تتصور المجاهدة بالنفس، بلا مجاهدة بالمال، وقيل: ترتيب هذه المتعاطفات في الآية، على حسب الوقوع، فالأول الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد بالمال، ثم بالنفس ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين، وأنزلوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم ﴿وَنَصَرُوا﴾ ونصروهم على أعدائهم

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في النصره والإرث، وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب، كما هو المروي عن ابن عباس والحسن وقتادة فإنهم قالوا: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاري، إذا لم يكن بالمدينة وليّ مهاجري واستمرّ أمرهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي من توليهم في الميراث، فلا إرث بينهم، ولا نصيب لهم في الغنيمة، ولو كانوا من أقرب أقاربكم ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ إلى المدينة المنورة ﴿وَإِن أَسْتَضَرُّوْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ﴾ منهم ﴿يَبَيِّنْكُمْ وَيَبَيِّنُهُمْ مِّثْقًا﴾ أي معاهدة، فإنه لا يجوز نقض عهدهم، بنصرهم عليهم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا تخالفوا أمره، كيلا يحلّ بكم عقابه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي في الميراث، وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين، ولو كانوا أقارب، ومن هنا ذهب الجمهور إلى أنه لا يرث مسلم كافراً، ولا كافراً مسلماً، لقد كان كفار قريش في غاية العداوة لليهود، فلما ظهرت دعوة الرسول ﷺ، تناصروا وتعاونوا على إيذائه، واشتركوا في العداوة، فصارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي إن لا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم، وتولي بعضكم لبعض، وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تحصل فتنة عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على العدو، كان العدو ظاهراً، والفساد زائداً ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين وهو سفك الدماء، والفساد يحصل من اختلاف الأفكار.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ^(٧٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي هم المؤمنون الكاملون حقاً، لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة من الوطن، ومفارقة الأهل والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا، لأجل الدين والعقبى، وهو كلام مسوق للثناء عليهم، والشهادة بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ في الجنة لا تبعة ولا منه فيه .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ ﴾ أي بعد السابقين إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة ﴿ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار، ألحقهم الله تعالى بالسابقين، تفضلاً منه سبحانه، وترغيباً في الإيمان والهجرة، وهي الهجرة الثانية بعد الحديبية، وهم التابعون بإحسان، وفيه إشارة إلى أن السابقين، هم السابقون بالشرف، وأن هؤلاء دونهم فيه، وبهذا القسم صارت أقسام المؤمنين أربعة، والتوارث إنما هو في القسمين الأولين، ولو اتفق كون المؤمنين في بلد، وفي عددهم قلة، وللكفار شوكة، فيلزمهم الهجرة من وطنهم، لأنه قد حصل فيهم مثال العلة في الهجرة الأولى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ أي ذوو القرابة ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ في التوارث من الأجانب، وهو نسخٌ للتوارث بالهجرة ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه في القرآن، أخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية، فتركوا ذلك، وتوارثوا بالنسب، واستدل بها على توريث ذوي الأرحام، الذين ذكرهم الفرضيون، وهم من لا فرض لهم ولا

تعصّب ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ومن جملة ما في تعليق التوارث، بالقرابة الدينية أولاً، وبالقرابة النسبية آخراً، من الحكم البالغة، والله تعالى ولي التوفيق، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على خير خلقه محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنفال»

* * *